السّلطة العثمانية في الجزائر
وعلاقتها بالطرق الصّوفية 1792 . 1830

أ. محمد شاطو،

قسم التاريخ،

المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، بمعسكر.

لا شك أن الدّارس لواقع الجزائر في أواخر العهد العثماني، وعلاقة السّلطة الحاكمة بالطرق الصوفية يتضح له أنّها قد عرفت تغيّرات ملحوظة بالنّظر إلى ما كانت عليه قبل تحرير وهران، وما آلت إليه بعد استكمال التحرير سنة 1792 . فالعلاقات تميّزت بالانسجام والتّعاون عموماً بين السّلطة الحاكمة والمتصوفة، طيلة المرحلة التي سبقت التحرير الكامل للمواقع التي كانت محتلة، والتي سادها الأمن والاستقرار عموماً، وغلب عليها طابع الجهاد ضد الغزاة ولا سيما الأسبان منهم، وصدّ المعتدين عن الجزائر .

أمّا المرحلة الثّانية فقد تميّزت باتساع الهوّة شيئاً فشيئًا بين الحكام و المتصوّفة؛ ذلك أن الجزائر قد استكملت وحدتها الترابية بتخلّصها من الاحتلال الإسباني نهائياً، فتوقّفت حركة الجهاد والرّباط، وتقلّص معها النشاط البحري، وتزامن كل ذلك مع سنوات القحط التي أضرّت بالزّراعة في هذه المرحلة، وانعكس ذلك على تلك العلاقة التي ظلّت حميمة إلى حد كبير بين الطرفين طيلة الفترة السابقة .

ولئن كانت الفترة التي أعقبت تحرير وهران نهائياً من أيدي الأسبان سنة 1792م، قد عرفت البلاد أثناءها استقرارا نسبياً نستشفه من حكم ثلاثة دايات . (الداي حسن باشا من 1791 إلى 1798 م . والداي مصطفى باشا من 1798 إلى 1805 م . والداي حسين من 1818 إلى 1830 م) ـ استمرّ حكمهم خمس وعشرين سنة، وشهدت البلاد بعض الإنجازات، وبذلت السّلطة الحاكمة كلّ ما في وسعها للحفاظ على توازنها المالي والاجتماعي؛ فإنّ صعوبة الظّروف الدّاخلية والخارجية التي كانت تمرّ بها الجزائر قد أوقعتها في دوّامة من الأزمات، تعامل الحكام معها بكثير من الارتجالية والتسرّع في اتخاذ القرارات . رغم النيّة الحسنة لمعظمهم . الشيء الذي أوقعهم في كثير من الأخطاء التي ساهمت بشكل أو بآخر في اتساع الهوّة بينهم وبين الرعية .

إنّ الحديث عن العلاقة بين السلطة الحاكمة والمتصوفة يستوجب التطرّق إلى الأوضاع التي ميّزت هذه المرحلة، وكيف أثرت أزماتها على البلاد؟ فارتأينا التطرق إليها على الشكل التالي:

الواقع السياسي:

يمكن القول بأنّ الجزائر قد عرفت خلال هذه المرحلة تدهوراً كبيراً من الناحية السياسية، حيث بدأت الأوضاع تسوء إثر موت الداي محمد عثمان باشا سنة 1791م، وتولّي الداي بابا حسان(1791ـ1798) مقاليد الحكم بعده، والداي مصطفى باشا (1798ـ1805)، هذا الأخير الذي كثرت في فترته أعمال الاحتكار في القمح والحبوب من طرف اليهوديين " بكري" و"بوجناح" وارتفعت الأسعار، وانتهى الأمر إلى قيام فتنة شملت طائفة اليهود، وتوالت بعد ذلك اغتيالات الدّايات، حتى تعاقب على الحكم خلال تسع سنوات ما بين 1220ـ1230هـ / 1805 ـ 1814م، خمس دايات (المدني، ت . 1986: 56، 58)، فضلاً عن الداي مصطفى باشا المذكور وهم: (الزهار، ش. 1980: 71 ـ 129)، الداي أحمد باشا (1220 ـ 1223هـ / 1805 ـ 1808م)

الداي علي باشا ويعرف بالغسّال (1223 ـ 1224هـ / 1808 ـ 1809م)

الداي الحاج علي باشا (1224هـ / 1809م)

الداي محمد باشا (1230هـ / 1814م)

الداي عمر باشا (1230 ـ1233هـ / 1814 ـ1817م)

هؤلاء كلّهم قُتلوا على أيدي العساكر، ممّا يشير إلى عدم الاستقرار السّياسي الذي عاشته الجزائر في هذه المرحلة من الحكم العثماني، الشيء الذي أثّر سلبًا على الوضع الدّاخلي للبلاد، حيث وجد البايات متسعًا من الحريّة في تصرفاتهم، فعاث بعضهم فسادًا بين الناس، و شاع ظلمهم للسّكان، فكان هؤلاء يرفعون مظالمهم للدّايات الذين بالرغم ممّا بذلوه من جهود لإزالة الفساد، لم يغيّروا من الوضع المتردي شيئًا؛ إذ أصبح من العسير تحكّم السّلطة في أجهزتها المختلفة، ممّا انعكس سلباً على الأوضاع العامّة للبلاد .

يشير العنتري وهو من الذين عايشوا المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني، واصفًا حكام تلك الفترة بقوله:"... وصاروا يظلمون النّاس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعِدون ولا يوفون ويؤَمّنُون و يغدرون "(العنتري، ص . 1991: 47) .

ويضيف " ومن هذا الوقت صاروا[صار] الترك يأخذون الجور، ونبذوا الحقوق المشروطة، وبدا لبدا] منهم الفجور، وبالجملة أنّه من حين موت الباشا الذي اسمه بابا محمد[الداي محمد عثمان باشا] (1766.1791) ومات صالح باي، تبدلت أحكام الترك، وانقلبت حقائقهم، وصار صغيرهم لا يواقر [لا يوقر] كبيرهم، وبد [وبدا] النقص في ملكهم ." (العنتري، ص . 1991: 68) .

الواقع الاقتصادي والاجتماعي :

إنّ ما تميّزت به المرحلة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، لم يكن يختلف عمّا تميّز به الوضع السّياسي من حيث التدهور والتردّي، بل عرف هو الآخر صعوبات لم

تعهدها البلاد من قبل، وازدادت معاناة السّلطة الحاكمة ومعاناة السّكان معاً، وأدّى تفاقم المآسي إلى اتّساع الهُوّة بين الطرفين، وممّا زاد في اتساعها غلاء الأسعار، وزيادة المطالب الضريبية؛ ممّا ساهم في نهاية الأمر إلى قيام التمرّدات والثورات التي تزعمها رجال الصوفية على وجه الخصوص؛ لما لهم من مكانة وكلمة مسموعة في أوساط المجتمع.

هذه النكبات التي توالت على الجزائر في هذه المرحلة من الحكم العثماني، اختلت خلالها الموازنات المالية، وتدهورت الأوضاع الاقتصادية كثيراً مع بداية القرن 19م؛ ولعلّ هذا التردّي يعود إلى مجموعة من العوامل منها:

ـ سنوات القحط والمجاعة التي أعيت الحكام وأثقلت كاهل السكان، حيث شهدت البلاد سنوات 1800 ـ1807 ـ 1816 ـ 1819 قحطاً شديداً أضر بالزراعة و أصبحت البلاد معرضة أثناءه للمجاعة (سعيدوني، ن . 1986: 96) . كما أشار إلى ذلك صالح العنتري بقوله:"... حصلت للناس شدة ومجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك.... حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك ممّا لا يباح اقتياته ... " (1974: 33، 34)؛ أو ما أورده الشيخ بلقاسم الرحموني الحدادي لتوفي في فترة حكم باي قسنطينة ابن شاكر 1814- 1818م] من أبيات تعكس معاناة السكان يومها أمام ارتفاع الأسعار، وانتشار الفساد وقلّة الغذاء. جاء فيها ما يلي:

عام مكبرة هاي سيدي   بالكساد و غلات النعما
كيف نخبر ها سيدي   بالفساد في كمان حوما
واش تنظر فيها هلكت   راهي فسدت
(COUR(A) . 1985: 124 , 127)

والشيء نفسه يتحدّث عنه المزاري: " وفي فصل الربيع سنة إثنين وأربعين ومائتين وألف (1242هـ /1826ـ 1827م)، وقع غلاء عظيم وقحط فيه الناس. " (المزاري، ب . 1990: 360).

ـ كما كان لتقلّص مداخيل البحرية أثره السلبي على خزينة الدولة، إثر تكتل الأوربيين في مواقفهم لوضع حد لنشاط البحرية الجزائرية التي كانت تزعجهم كثيراً في الحوض الغربي للمتوسط، وهي التي كانت في الوقت ذاته تدرّ أموالاً طائلة على البلاد. وهو ما يرويه الشريف الزهار بقوله :

" وفي تلك السنة (1231هـ / 1815م)، اتفق جميع الرّياس (أي الملوك) مع السّلطان محمود على إلغاء الأسر... فقدِم الإنكليز للجزائر وأُخبر الأمير بذلك ... وأنّ الأسارى الذين بالجزائر فإنّه أتى لكي يحملهم ..." (الزهار، ش . 1980: 119، 120).

كما تجدر الإشارة إلى أنّ عام 1815 قد شهدت أوربا خلاله انعقاد مؤتمر فيينا الذي كان من بين قراراته: منع تجارة الرقيق، وكان يمثل في الوقت ذاته خطوة هامّة في تاريخ التقارب الأوربي ضدّ كلّ ما يهدّد مصالحهم وأنظمتهم، سواء من داخل أوربا كنابليون بونابرت، أومن خارجها كالدّولة العثمانية وإيالاتها، وفي مقدمتها الجزائر .

لقد ازدادت المواقف تقارباً بين الأوربيين بعد انعقاد مؤتمر اكس لاشابيل 1818 . ففي 5 سبتمبر 1819 أشعرت الدول الأوربية الداي حسين بقرارات هذا المؤتمر الذي أكّد على تمسّك الدّول الأوربية وتوحيد قواها لوضع حد لنشاطات الأسطول الجزائري في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ وأهم ما جاء في الإشعار: " أيها الأمير إنّ الدول الأوربية التي اجتمعت في السنة الماضية في أكس لا شابيل قد أوكلت لفرنسا وبريطانيا العظمى، أمر تقديم تحذيرات جادّة وخطيرة باسمها جميعًا للإيالات البربرية، حول ضرورة وضع حد للنّهب وللاعتداءات التي تقوم بها السفن المسلحة التابعة لهاته الإيالات... فهاته الدول مصمّمة وعازمة بصفة نهائية على وضع حد لنظام القرصنة... ويجب أن تتمعن جيّداً في ذلك قبل فوات الأوان...." (قنان، ج . 1987: 265 ، 266) .

لقد تزامنت هذه القرارات والتكتلات الأوربية ضدّ نشاط البحريّة الجزائرية مع سنوات القحط والجفاف التي كانت تمر بها البلاد، ممّا زاد في تأزم الوضع الاقتصادي والاجتماعي معاً، فشحّت المداخيل كثيراً، ووقع عجز في الخزينة، ولم تجد السّلطة الحاكمة مخرجاً من هذا المأزق سوى الاهتداء إلى زيادة الضرائب على السّكان، والاجتهاد في جبايتها؛كما أدّى الضّغط المتزايد على الأرياف إلى قلّة الإنتاج وإهمال الزراعة وإعلان العصيان . (سعيدوني، ن . 1986 : 36) .

إنّ القابضين على السلطة العثمانية في الجزائر خلال هذه الفترة بدوا وكأنهم مخالفون لمن سبقهم من الحكام، لأن الدّايات الأواخر صاروا يطلبون من الداخل وبقوّة وشدّة ما كان الأوائل من البيلربايات والباشاوات والأغاوات والدايات الأوائل يحصلون عليه من الخارج بواسطة نشاط البحرية أساساً، بأسطولها القوي في الحوض الغربي للمتوسط .

وأمام تمادي الحكام في سياستهم تلك، انفلت الأمر من أيديهم، وازدادت الأوضاع سوءًا، وحركيّة السّكان ضعفاً، وحالة الجيش تدهورًا؛ خاصة إذا علمنا بأنّ سياسة بعض الدّايات الأواخر كالدّاي بابا حسان، والدّاي مصطفى باشا قد انصبّت على انتهاج أسلوب جديد في التعاملات التجارية قوامه تصدير المزيد من المحاصيل الزراعية إلى الخارج، عن طريق الشركات الأوربية والمحتكرين اليهود أمثال بكري وبوجناح .

ففي الوقت الذي بدأ يقلّ فيه الإنتاج الزراعي، كان السّماسرة اليهود يصدّرون كميّات هائلة من الحبوب . ولقد أثارت تلك النشاطات التجارية التي كانوا يمارسونها

بدعم من السّلطة الحاكمة حفيظة السكان، خاصة عندما كان الأمر يتعلّق بغذائهم الأساسي وهو القمح، الشيء الذي أحدث اضطرابات خطيرة في البلاد، يسرد تفاصيلها نقيب أشراف الجزائر أحمد الشريف الزهار كما يلي: " إن الخزناجي[مصطفى] كان محباً لليهود، وكان كبيرهم ولد بوجناح له صولة كبيرة مع الأمير والخزناجي، وكانت له مراكب تسوّق القمح والشعير من وهران وعنابة إلى بر النصارى بإذن الأمير ووزيره الخزناجي ..وكان الناس والأتراك يخافون شوكته إلى آخر سنة 19 [1219 هـ / 1804م]، فقام رجل من الأتراك اسمه يحي يريد قتله..فلمّا قرب منه ضربه ببندقية لبطنه..فلمّا سمع أهل البلد بموت الذمي وبقاتله، فرح المسلمون بذلك ... فلمّا علم الأتراك أن أهل البلد فرحوا...خرج الأتراك وذهبوا للحارة وابتدؤا يقتلون رجال اليهود، فقتلوا منهم نحو المائتين، وعندما وقع هذا الأمر باليهود، بقي الأمير ساكناً ولم يقدر على أحد . " (الزهار، ش . 1980: 67 ، 68) .

إنّ هذه السّياسة التي انتهجها العثمانيون في مواجهة الأزمة الاقتصادية في آخر عهدهم بالجزائر، كانت انعكاساتها سلبيّة على المجتمع، ممّا وفّر الأجواء لقيام التمردات والثورات عليهم؛ وكانت آثارها جسيمة على الجميع، فتلاشت الروابط بين الحكّام والرعية، وفُقدت الثّقة، وقلّ الأمن، واشتكى الناس من ظلم البايات وانحرافهم .

مجهودات الدايات في الحفاظ على الاستقرار الداخلي:

اجتهد بعض الحكام خلال هذه المرحلة من الوجود العثماني على حفظ الأمن، وصيانة العدل، ومحاربة الفساد، وتَتَبُّع سيرة البايات وتقويم انحرافاتهم بأشدّ العقوبات، باعتبار ذلك هو أساس الاستقرار. ولعلنا نلمس ذلك خلال الفترة الأخيرة من وجودهم ضمن هذه النماذج من الإجراءات التي اتخذها الدّايات ضدّ بعض البايات الذين عاثوا بين الناس فساداً، وبلغ صداها إلى الدّايات الذين لم يألوا جهداً في الأخذ بهم، وكان موقفهم منهم إمّا القتل أو العزل؛ وهو ما جعل الكثير من المصادر تنوّه بهذه السيّاسة؛ ومن ذلك ما ذكره العنتري عن عبد الله باي قسن طينة (1219.1221هـ/1804 ـ 1806): " ... رغم شجاعته وإقدامه في الحروب أمر الباشا بقتله عام 1221هـ لأن امرأته تشاركه في الأحكام، وذلك أمر قبيح عند العرب والأعاجم . " (العنتري، ص . 1974: 74) .

كما تطرّق إلى هذه السياسة بالتفصيل، صاحب " تاريخ بايات قسنطينة " (حساني، م . 1999: 19، 30)، الذي يقول عن أحمد طوبال 1223هـ/ 1808م: " بعد تولّيه السّلطة مدّة ثلاث سنوات، وسبب مقتله أنه كان منشغلاً بالزّهو والطّرب وترك الحكم لصهره، فعزل " . وعن محمد نعمان باي 1226هـ/1811م: " كان مُفرطاً في الأحكام، وقد مسّ الكثير من الناس بأحكام الباطل، وأخذ الخطايا في غير موجب، ممّا جعل الناس يشكون منه إلى الداي في الجزائر فأمر الداي بقتله وعزله وولّى مكانه أحد

الصبايحية و هو محمد شاكر ". وعن هذا الأخير 1225هـ/ 1814: "...أنّه ترك الجيش يعيث في الأرض فساداً، فقتلوا ونهبوا وأكلوا أموال النّاس، واغتصبوا النّساء، وعندما تكاثرت الشكاوى في شأنهم على الدّاي بالجزائر أمره بقتل بعض قادتهم، وعندما رفض عُزل وقُتل". وعن محمد باي الميلي 1233هـ/1818: "... فلمّا ولّى لتولى الحكم] اشتغل بقتل الأعراب والنّهب في أرزاقهم، وبدع قطع الرأس بالشّاقورحتى سمّوه الباي بوشطابية...»، ويقول عنه العنتري: " قليل العقل يظلم الناس يأخذ أرزاقهم بالباطل... صدر فيه الظلم والجور على الناس، فرفعوا شكاياتهم[شكاويهم] إلى الباشا[باشا] الجزائر، فحينئذ عزله بهذا السبب " (العنتري، ص. 1974: 86).

ولم يكن الأمر يختلف في بايلك الغرب؛ فمع موت الباي محمد الكبير محرّر مدينة وهران من الأسبان، تولى ابنه مكانه وهو الباي عثمان، الذي انحرف عن الجادّة، ولم يلتزم بسيرة أبيه ولم يحافظ على أمجاده، فكان ذلك وبالاً عليه وعلى الناس، وهو ما ذهب إليه المزاري واصفاً إياه:" وهكذا بدأت سياسته في التدهور والتراجع، وبدأ ما شيّده أبوه يتعرض للخراب " (المزاري، ب. 1990: 299).

ويقول عنه مسلم بن عبد القادر الوهراني: "..وانتقل باللّهو والطّرب متشبهاً بملوك بني العبّاس العرب.... بعث إلى تونس رجلاً يأتيه ببعض جواريها المغنيات، فأتاه بجاريتين مغنيتين متصدّرتين في الجمال والغناء، فتسلّى معهما أيامًا و ليالي، إلى أن بلغ ذلك متولّي أمره بالجزائر، واستشاط من ذلك غضبًا، فأمر بعزله، وكبس دوره، وأخذ جميع ما في خزانته من الأموال والذخائر ..." (مسلم، ب. 1974: 65، 66).

لقد حاول بعض الدّايات - رغم الفترة الحرجة التي كانت تمرّ بها البلاد - المحافظة على الاستقرار الدّاخلي، واستتباب الأمن، وطمأنة النفوس؛ وهو ما تؤكده رسالة الدّاى علي خوجة (1816 .1817) إلى السّلطان العثماني، التي جاء فيها: "... منذ استلامي مقاليد الحكم، وأنا ساهر على حماية البلد ...كان الواجب يُحتّم علينا رفع الطّاعة والولاء إليكم والدّفاع عن البلاد بجهادنا وحماية الفقراء والضّعفاء، وحلّ المشاكل المعلّقة على الدّولة. إنّ عبدكم لصارفٌ نهارهُ وليلهُ إلى أداء مثل هذه الواجبات.

عبدكم علي بن أحمد، متصرف الجزائر المحروسة.

25 ذي القعدة 1232 هـ / 6 أكتوبر 1817 م. (التميمي، ع. 1985: 151).

لكن هذه الإجراءات التي كان يتخذها الدايات في حق البايات المنحرفين، بالرغم من أنها كانت ترضي العامّة، ويشيد بها الكُتّاب والمؤلفون كما رأينا، وتُظهر مدى جديّة السّلطة الحاكمة في محاربة الفساد الذي أصاب أجهزتها؛ فإنّ مفعولها في إصلاح الأوضاع العامّة للبلاد بقي محدوداً، جرّاء ما تعرض له الناس من ظلم ونهب وسلب من حكام الأقاليم على وجه الخصوص.

علاقة السلطة الحاكمة بالمتصوّفة

أمام تلك المستجدات التي عرفتها الجزائر، لم تستطع السّلطة الحاكمة المحافَظة على وتيرة تعاملها المعهود مع رجال الصّوفية، فازداد بذلك التباعد يوماً بعد يوم بين هؤلاء وأولئك، ممّا دفع في نهاية المطاف بزعماء الطرق الصّوفية إلى الوقوف بجانب السّكان المتذمرين من سياسة الأتراك، بل قادوهم إلى الثورات والتمرّدات .

جاء في قصيدة من الشعر الملحون نظمها لكحل بن خلوف، وهو من المنتسبين للصوفية والمعروف بمدائحه الدينية الكثيرة، ما يشير إلى المعاناة الشديدة من الحكم التركي :

ربي تحير طه عفوه يا جواد   انزع على الإسلام همومها تبرا

اذهب عليهم التُرك جارت المعتاد   بالخير بالتخيل صدرا (بن خلوف، ل . 1843:6).

لقد اتسمت السياسة المنتهجة من قبل السلطة الحاكمة بالتناقض عموماً، كانت من جهة في حاجة إلى استرضاء الأعيان ـ بما فيهم زعماء الطرق الصوفية ـ للحفاظ على الأمن وضمان الجباية؛ ومن جهة أخرى تضطر بسبب شح الموارد إلى استعمال القوة؛ ممّا كان يؤدي أحياناً إلى ثورة السكان، عندما كان الأعيان يجبرون على مجاراة أتباعهم حتى لا تتفلت السّلطة من أيديهم (العروي، ع . 1999: 76)، ولا سيما زعماء الطرق الصوفية التي كانت ثوراتهم في واقع الأمر بمثابة رد فعل لانشغال السّلطة الحاكمة بأزماتها الدّاخلية والخارجية عن تقربها المعهود إليهم عن طريق الهدايا، والزّيارات، وطلب صالح الدّعوات، وإعفائهم من الضرائب من جهة؛ وعلى التّكاليف الضّريبية التي أرهقت كاهل الأهالي وفيهم المريدين والأتباع والمحبين لهم من جهة ثانية، ولا سيما بعد تضاؤل دورهم في التّوفيق بين المتطلبات المالية للجهاز العثماني الحاكم، وبين مجموعات السّكان المحليين المتأثرين بنّفوذهم الرّوحي. (سعيدوني، ن . 1985: 60) .

إنّ ما يدلّ على تعاطف رجال الصّوفية مع أتباعهم، وتذمرهم ممّا آلت إليه سيّاسة الأتراك، نلمسه بوضوحٍ في الكلمات التي عبّر بها الشّريف الدّرقاوي المُحاصِرْ آنذاك لمدينة وهران، لشيخه أبي عبد الله ـ الذي بعثه السلطان المغربي سليمان، بطلب من محمد باي وهران الملقب بالمقلش، الذي ترجاه أن يرسله إلى أتباعه المحاصِرين لمدينة وهران لإقناعهم بالعدول عن ثورتهم عندما قَدِم إليه سنة 1220هـ/1805 ـ 1806م حاثاً إياه بفك الحصار ـ فردَّ عليه قائلاً:" ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرّعية من عسف الترك وجورهم، و إنهائهم في ذلك إلى القتل والطّرد من الوطن ".(السلاوي، ن . 1956: 110) .

لم يجد زعماء الصوفية بُداً من الوقوف إلى جانب السكان المتمسكين بهم، الواثقين من صدقهم وإخلاصهم لهم، المنصاعين لأوامرهم؛ إضافة إلى ما كانوا يعانوه هم أنفسهم من تناسٍ، وتجاهلٍ، وقلّةِ عنايةٍ من السّلطة الحاكمة ـ نظراً لصعوبة المرحلة ـ عمّا ألفوه منها من قبل؛ فكانت نتيجة ذلك : اضطراب الأوضاع في جهات مختلفة من البلاد.

ثـورات المتصوّفة

1ـ ثورة الشريف ابن الأحرش الدرقاوي (الثورة الدرقاوية ببايلك الشرق):

كانت من أخطر الثورات التي عرفها القطر الجزائري طيلة الوجود العثماني، لأنّها شملت رقعة واسعة من بايلك الشرق، ولأنّها دامت ثلاث سنوات متتالية، وقتل خلالها باي الإقليم الشرقي عثمان بن صالح باي (الشريف، ز .: 86)، الذي خرج يطلب رأس الشريف في جيش بلغ عدده أربعة آلاف جندي (العنتري، ص. 1974: 29، 33) . وفي سنتي 1806- 1807 م تجدّدت المعارك، ولمّا هاجم الشريف سهول بجاية تصدّت له جيوش الباي عبد الله واضطرته إلى الفرار و الالتحاق بشيخ الدرقاوة في بايلك الغرب؛ حيث" بقي في معيشه إلى أن دسّ له من قتله من أصحابه وكان ذلك في1807م"(الأمير، م . 1964: 118) .

لقد تصدّت السّلطة الحاكمة لهذه الثورة بكلّ قواها، ولم تيأس رغم ما تكبّدته من خسائر، لأن ذلك كان يهدّد الأمن الدّاخلي من جهة، والوجود العثماني في الجزائر من جهة أخرى .

كما لم تكن ثورة ابن الأحرش هي الوحيدة التي عرفتها هذه الفترة من حيث قوتها وسعة انتشارها

وكثرة أتباعها، بل تزامنت مع قيام ثورة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب .

2ـ ثورة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي(الثورة الدرقاوية ببايلك الغرب):

يذكرها محمد بن يوسف ا لزياني بتفاصيلها فيقول: "...الباي مصطفى ـ [هو مصطفى بن عبد الله العجمي: تولى السلطة على بايلك الغرب ما بين 1215 ـ 1220هـ / 1800 ـ 1805م] ـ جهّز جيشا عظيما وقصد به ابن الشريف إلى أن تلاقيا بفرطاسه بين وادي مينا ووادي العبد، و شعلت نار الحرب بينهما .... كان ذلك يوم الأحد ثالث ربيع الأول سنة 1219هـ/ 1805م... " (الزياني، م . 1979: 208، 209) . فكانت هذه المواجهة شديدة الوقع على السّلطة الحاكمة بوجه خاص، وعلى عامّة النّاس بوجه عام، لِمَا ذهب ضحيّتها من أعيان.

يذكرها مسلم بن عبد القادر في قصيدة شعرية يشيد فيها بالباي مصطفى وما جهّزه من قوّة لمواجهة الدّرقاوي الذي يذكره باحتقار .

فيوم فرطاسـة يوم كبيـر ذُلّ فيـه العزيز وعـزّ الحقيـر
لقد هيأ مصطفى جيشًا كثير تُركًا و مخـزناً الملك الكبيـر
فلم تكـن ساعـة وانهزمـوا من جيش قليل هيـأه الفقيـر (مسلم، ب . 1974: 76) .

واصل الشريف الدرقاوي ـ بعد انتصاره في معركة فرطاسة ـ زحفه إلى وهران فحاصرها، وأوشك على الاستيلاء عليها؛ لولا استمالة الباي للأعيان وقوات المخزن ببذل الأموال الطائلة لهم . وانتهى بذلك أمر الدرقاوي الذي فرّ نجاةً بنفسه إلى المغرب الأقصى (الزهار، ش . 1980: 87) .

3 ـ الثورة التجانية ببايلك الغـرب:

جاء في رحلة الأغواطي ذكره لهذه الثورة على العثمانيين و لزعيمها ولد التجيني حيث يقول: " منذ سنتين فقط جمع جيشاً زحف به غرب الناحية المحيطية إلى لوائه، وزحفوا بالطّبول والمزامير، وأُعطيت لهم الخيول و الخيام . وقد سقطت مدينة معسكر في أيديهم و تقدّموا نحو وهران غير أن باي وهران

[هو حسن بن موسى آخر بآيات وهران المعروف بحسن الناهي الذي حكم مابين 1821- 1830م] وزّع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة الجيش، وقد نجح الباي فجعلهم بذلك يسحبون أيديهم لولد التجيني الذي قُتل فيما بعد إثر هجوم قام بت الباي ضد جيشه " (سعد اللّه، أ . 1986: 243).

من خلال استعراضنا لأهم الثورات التي قادها المتصوفة والتي أنهكت الجميع، وتصدّي السّلطة الحاكمة لها، ومواجهتها بقوّة السلاح، رغم ما كلّفها من الخسائر الماديّة والبشريّة ـ كمقتل الباي عثمان في مواجهته لابن الأحرش بشرق البلاد، ومقتل كبار الأعيان و كُتّاب الباي مصطفى؛ أمثال ابن هطّال في مواجهة الشّريف الدرقاوي بغرب البلاد ـ نجد أنّ الحكّام الأتراك لم يستسلموا لهؤلاء الثائرين، رغم الظّروف الصّعبة التي كانت تمرّ بها البلاد، معتبرين خطرهم أكبر مهدّد للأمن الداخلي، وللوجود العثماني بالجزائر . ولعلّ ما يؤكد ذلك هو مضامين الرّسالة التي بعث بها الداي عمر باشا [1230 ـ 1231ه/ 1815 ـ 1816م] إلى السّلطان العثماني، وقد جاء فيها: " ... أمّا واجبكم فهو معاونتنا بإرسالكم الأوجاق والأسلحة، خصوصاً عندما ظهر هذا المهدي الكاذب منذ خمس وعشر سنوات في غرب وشرق الجزائر . لقد ثار علينا ... لقد هاجم العساكر الأتراك ... وعليه فإننا نعلمكم أن عدداً من الموتى قد سُجل في المعارك.... نطلب من حضرة سلطاننا أن يرسل إلى أوجاقنا الذّخائر الحربية نظراً لقلّة ما نملكه الآن ... " .

والي الجزائر عمر باشا في رجب 1231 ه / جوان 1816 م (التميمي، ع . 1985: 144)

.

السّلطة الحاكمة وقمع المتصوّفة:

لا شكّ أنّ الثورات التي قادها زعماء الطرق الصوفية على السلطة الحاكمة كانت لها انعكاساتها السّلبية، وعواقبها الوخيمة على العلماء، والفقهاء، والمتصوّفة خصوصاً. إذ صار رجال السّلطة يتعاملون معهم بحذر شديد، بل يتوجّسون منهم خيفة، ويتتبّعون أخبارهم وتحركاتهم، وقد تعرض الكثير منهم لشتى أنواع القمع و القتل، ولا سيما ببايلك الغرب الذي شهد ثورة درقاوة، والثورة التيجانية . وفي هذا الصّدد نقدِّم ما جاء على لسان المزاري الذي يسوق لنا شيئاً من سيرة الباي حسن آخربايات وهران، وكيف تعامل مع رعيّته؟ فيقول: "... واجترأ على العلماء والأولياء والشّرفاء والرّعيّة فبان منه الجور والظلم والتعدّي، وكثر منه الضلال وهتك المحارم والتردّي، وطغى وتجبّر وتكبّر، وكثر منه الفساد والسّفك بغير موجب لدماء العباد، ولم يراقب في ذلك خالقه ولم ينظر ليوم المعاد ... " (المزاري، ب . 1990: 350) .

لقد أقدم الباي حسن على قتل الكثير من العلماء، والفقهاء، وشيوخ الصوفية فقتل ولي اللّه الحاج محمد البوشيخي وعلّقه مع خشبة بوهران، وقال: هذا جزاء من يريد الظهور والإعلان؛ ثم توجه بجيش عظيم إلى زاوية الشيخ بلقندوز القدّاري التيجيني، وليس عند هذا الشيخ الضرير سوى الطّلبة لقراءة القرآن، قال مثل هذا لا يثور علينا ورجع، ثم غزاه ثانية وقتله خنقاً في عام 1245هـ / 1829م . (المزاري، ب . 1990: 361، 362) .

وكان الشيخ الشارف بن تكوك تلميذاً للشيخ بلقندوز فهاجر إلى المغرب بعد مقتل شيخه، ورثاه بقصيدة تضمّنت الترحم عليه وذكر حسناته، والدّعاء على الباي حسن بعذاب اللّه وانتقامه، إستياءً وتذمراً من السّلطة الحاكمة وسياستها القمعية تجاه المتصوّفة . هذه بعض الأبيات من قصيدته:

ارحم شيخي بلقندوز مريد الشيخ المعزوز

بالقندوز المزهد في وسط الطلبة عابد

لابد في الذكر يمجد يخدم ربي بالنّية

إنّ ما نلمسه ضمن هذه الأبيات من قوّة التأثر والتعلّق بهذا الشيخ، لما تجسد في شخصه من مواصفات جليلة شهد له بها تلميذه؛ من تقوى، وورعٍ، وعلمٍ، وزهدٍ، وعبادةٍ، وذكرٍ، وانكبابٍ على تدريس جموع من الطلبة على مدار عقود من الزمن؛ ليعكس بصدقٍ ما أحدثته السلطة الحاكمة من شرخ بتلك السياسة التي أصبحت محلّ استنكار داخل المجتمع، وساهمت بشكل كبير في اتساع الهوة بين الحكام والرعية .

ثم يتعرض للباي حسن فيقول:

يارب عذّب حسن فركت بيت الله تعيان
والطلبة قعدت تتهانا وافترقوا في بكريا (المزاري، ب. 1990: 51- 52)

إنه الدعاء على الباي حسن بما يستحقه من عقاب الله، لِما فعله مع هذا الشيخ الضرير، وكيف كان فعله سبباً في تفريق طلبة القرآن وحفظته حين أقدم على قتل شيخهم، وعطّل نشاطاً دينياً وثقافياً، ودوراً اجتماعيا كانت تقوم به الزاوية بزعامة هذا الشيخ .

وفي نفس السياق نظّم مسلم بن عبد القادر أبياتاً شعرية قالها تشفيًا في الأتراك إثر هزيمتهم أمام الفرنسيين، رغم كونه كان كاتباً مقرّباً من الباي حسن بوهران إلى غاية احتلالها . وذلك استياء وتذمراً من انحراف سياستهم في أواخر عهدهم . يقول فيها :

أدّبهم ربهم لمّا طغـوا عرّفهم بغدرهم لمّا بغـــوا
فانشغلوا بالظلم ليس من عدلٍ فأُخذوا أخذاً وبيلاً بالمهـــل
لمّا نسوا ما ذكّروا به ختـم على قلوبهم الله فانتقـــم
وعتوا عتواً على الخلق وجاروا فكانوا أكثر العباد وبـــارو
فرفع الكلّ الأكفَّ و دعوا بما به أجاب الله و رجوا
أمهلهم لمّ بلغ الوقت الأجل أبدلهم بغيرهم تمّ العمـــل (مسلم، ب . 1974: 34) .

إنّ سوء تعامل الأتراك مع الرّعية وخصوصاً المتصوفة كان هو الطابع الذي غلب على تلك المرحلة من الحكم العثماني في الجزائر، حسب كل من كتبوا عنها، سواء من أولئك الذين عايشوها، أو أولئك الذين كانوا قريبين منها .

إنّ العلاقة التي بلغت ذروتها في التردي بين السلطة التركية الحاكمة وبين المتصوفة قد ساهمت بشكل كبير في التشنج، واتساع الهوة مع كافة الرّعية، وذلك لما للمتصوفة من أتباعٍ ومريدين، ومتعاطفين معهم داخل المجتمع، حتى صار الجميع يسأل الله أن يزيل عنهم ظلم الأتراك؛ وهو ما ذهب إليه الزياني بقوله: " واعلم أنّ الأتراك لمّا تمهّد لهم الملك بالجزائر، كثر ظلمهم وفسادهم بحيث لا يليق أن يُذكر ما كانوا فيه من الظلم والمناكر، وتواتر ذلك على الألسنة بغاية التواتر..وسألت الناس الله أن يزيل بهم ما حلّ من ظلمهم . " (الزياني، م . 1979: 253) .

وخلاصة القول أنّ المرحلة التي أعقبت تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني سنة 1792م عُرفت بكثرة أزماتها الداخلية، السيّاسيّة منها كتفشي ظاهرة اغتيال الحُكام، وضعف شخصياتهم، وقيام التمرّدات عليهم . والاقتصادية كظاهرة الجفاف وسنين القحط التي توالت على البلاد، وشُح المداخيل البحرية وتقلّصها . بالإضافة إلى

الأزمات الخارجية وفي مقدّمتها التكتل الأوربي على الجزائر، من أجل وضع حدٍ نهائيٍ للتخلّص من نشاط بحريتها المتفوّقة في الحوض الغربي للمتوسط.

إنّ هذه التّطورات الدّاخلية والخارجية التي عرفتها الجزائر أثّرت بشكل عميق في طبيعة السّياسة التي انتهجها الحكام في تعاملهم مع الأحداث التي لم يألفوها من قبل بهذا القدر من الخطورة المهدّدة لوجودهم. ولم تخلُ هذه السّياسة من الارتجالية في اتخاذ القرارات، خاصّة الدّاخلية منها ممّا أوقع الحكام في كثير من الأخطاء وإن حاول بعضهم تفاديها، فإنّ ذلك قد هيأ الأجواء لقيام ثورات المتصوفة ضدهم، وانعكس ذلك سلباً على المجتمع بأكمله حكاماً ورعية، وعرّض البلاد للمخاطر الخارجية ولا سيما الغزو الأجنبي الذي أفلحت فرنسا في تحقيقه سنة 1830؛ بالرغم ممّا بذلته السلطة الحاكمة يومها من محاولات لكسب ثقة السكان؛ كما عبّر عنه سيمون بفايفر الذي عايش عملية الغزو ودخول الجيش الفرنسي أرض الجزائر، واصفاً العلاقة بين الأهالي و الأتراك في تلك الأثناء بقوله: " ولكنّهم في الظاهر كانوا يعاملون الجزائريين برفق ولطف ومروءة .... وكان الدّاي قد لمّح للإنكشارية سرًا بأن تصرّفهم مع الجزائريين في هذه المرحلة الدّقيقة يجب أن يتّسم بالذّكاء والحكمة والاتزان، وألاّ يلحقوا بهم أيّة إهانة من شأنها أن تثيرهم، وأفهمهم أن غضّ الطّرف عنهم والتّسامح معهم أفضل من محاولة إذلالهم، كما أمرهم أن يتذكّروا كم هم في حاجة إليهم في الوقت الحاضر" (بفايفر، س . 1974 : 74، 75) . ولكن هذا لم يُجد نفعاً . إنما يجب "على السّلاطين وعلى أولي الأمر، أن يكونوا مع من تحت تصرّفهم بمنزلة الأب المُطاع مع أطفاله وأهل بيته، فيجب عليهم أن يبادروا بإصلاح ما يُدخل عليهم الضّرر..." (حمدان، خ . 1968: 78)

الإحــالات

(1) الأمير، محمد. (1964) . تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق د. ممدوح حقي، ط2، بيروت، لبنان: دار اليقظة العربية .

(2) بفايفر، سيمون . (1974) . مذكرات، تقديم وتعريب: أبو العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

(3) بن خلوف، لكحل . (1843) . قصيدة " صلوا على النبي وارضوا على العشرة "، الجزائر: مخطوط بالمكتبة الوطنية .

(4) التميمي، عبد الجليل . (1985) . بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر وتونس وليبيا: 1816 ـ 1871، الطبعة الثانية، زغوان ، تونس : منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني .

(5) حمدان، بن عثمان خوجة . (1968) . إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

(6) الزهار، أحمد الشريف . (1980). مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط2 . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

(7) الزياني، محمد .(1979). دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

(8) سعيدوني، ناصر الدين . (1985) . النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792 ـ 1830 ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

(9) سعيدوني، ناصر الدين . (1986) . دراسات في الملكية العقارية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

(10) السلاوي الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد .(1956) . كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 8، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، الدار البيضاء، المغرب : دار الكتاب .

(11) العروي، عبد الله . (1999) . مجمل تاريخ المغرب، ط 1 ، ج3، بيروت، لبنان : المركز الثقافي العربي .

(12) العنتري، صالح. (1991) . فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم (تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم وتعليق د. يحي بوعزيز، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية .

(13) العنتري، صالح . (1974) . مجاعات قسنطينة، تحقيق و تقديم رابح بونار، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

(14) قنان، جمال . (1987) .نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 ـ 1830 ، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة.

(15) مجهول.(1999) . تاريخ بآيات قسنطينة (المرحلة الأخيرة)، تحقيق حساني مختار، الجزائر : منشورات دحلب .

(16) المدني، أحمد توفيق .(1986) . محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .

(17) المزاري، بن عودة . (1990) . طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا وإلى أواخر القرن 19م، تحقيق ودراسة: د . يحي بوعزيز، الطبعة الأولى، الجزء الأوّل، لبنان، بيروت: دار الغرب الإسلامي .

(18) مسلم، بن عبد القادر الوهراني . (1974) . أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

(19) COUR(A): 1985 . Constantine en 1802. D'après une chanson. R .A T:60 -1919 O P U-Alger: pp: 124 , 127